اَلْـفُـرْصَـةُ الْأَخِـيـرَةُ (اَلْكابُـوس)

بَيْنَما كُنْتُ أَسْتَعْرِضُ في ذِهْنِي أَعْمَالَ الدُّنْيا الَّتي بَقِيَتْ غَيْرَ كَامِلَةٍ تَنْتَظِرُ مِنِّي إِنْجَازَهَا، فُوجِئْتُ بِصَوْتٍ يَرِنُّ في أُذُنَيَّ.. صَوْتٌ وَجِلَتْ مِنْهُ رُوحِي، وَنَفَذَ إلى أَعْمَاقِ عَقْلِي وَتَرَدَّدَ صَدَاهُ هُنَاكَ.. كَانَ كَأَنَّهُ صَادِرٌ عَنْ مُكَبِّرٍ لِلصَّوْتِ: "لَقَدْ فَاتَ ذَلِكَ وَانْقَضَى"..!

وَبِحَسْرَةٍ قُلْتُ في نَفْسي: "لَيْتَهُ لَمْ يَفُتْ وَلَمْ يَنْقَضِ" ...

لاَ أَدْري كَيْفَ وَقَعَ لي ذَلِكَ الحَادِثُ.. كَيْـفَ وَقَعَ ، مَعَ أَنَّني أُجِيدُ قِيادَةَ السَّيَّارَةِ!.

وَبَيْنَما كُنْتُ أُحَاوِلُ أَنْ أَسْتَجْمِعَ في ذِهْنِي مَا حَدَثَ ، أَحْسَسْتُ أَنَّ أَصْدِقائِي يَحْمِلُونَنِي إلى المَسْجِدِ لِأَدَاءِ صَلاَةِ الجَنَازَةِ..

عِنْدَمَا خَطَرَ بِبالي المَسْجِدُ تَذَكَّرْتُ أَنَّهُ مَعَ كَوْنِهِ قَرِيبًا جِدًّا مِنْ دَارِي وَرَغْمَ نِدَائِهِ الْمُـتَـكَرِّرِ وَدَعْوَتِهِ لِلصَّلاةِ خَمْسَ مَرَّاتٍ كُلَّ يَوْمٍ فَإِنَّني لَمْ أَجِدْ مُتَّسَعًا مِنَ الْوَقْتِ لِلذَّهَابِ إِلَيْهِ، وَلَكِنَّنِي كُنْتُ عَازِمًا عَلى الْبَدْءِ بِالصَّلاَةِ عِنْدَ بُلُوغِي سِنَّ الْخَمْسِينَ.. اَلْكُلُّ يَعْرِفُ هَذَا، فَلَقَدْ قُلْتُ ذَلِكَ مِرارًا لِأَصْدِقائِي.. نَعَمْ كُنْتُ سَأَبْدَأُ بِالصَّلاَةِ، وَكُنْتُ سَأَتْرُكُ كَذَلِكَ عَادَاتِي السَّيِّـئَـةَ الَّتي كَانَ كَثِيرُونَ يَشْكونَ مِنْها.

أَجَلْ! أَجَلْ!.. لَوْلاَ هَذَا الحَادِثُ لَأَصْبَحْتُ في الْمُسْتَقْبَلِ شَخْصاً جَيِّداً.. لَوْلا هَذا الحَادِثُ..!!

وَمَرَّةً أُخْرَى طَرَقَ سَمْعِي ذَلك الصَّوْتُ الَّذِي لَا أَعْرِفُ مَصْدَرَهُ: "لَقَدْ فَاتَ ذَلك وَانْقَضَى"!

بَعْدَ قَلِيلٍ حُمِلْتُ عَلى الْأَكْتافِ مَرَّةً أُخْرَى.. إِذَنْ فَقَدِ انْتَهَتْ صَلاَةُ الجَنَازَةِ، وَعِنْدَمَا مَرَرْتُ أَمَامَ مَقْهًى حَيِّنا سَمِعْتُ الضَّحْكاتِ المَرِحَةَ لِأَصْدِقائي الَّذِينَ كُنْتُ أَلْعَبُ مَعَهُمْ الْوَرَقَ كُلَّ يَوْمٍ.. "لَا شَكَّ في أَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا بَعْدُ بِخَبَرِ وَفاتِي".

بَعْدَ قَلِيلٍ وَصَلْنا إلى المَقْبَرَةِ.. أَنْزَلوا التَّابوتَ وَوَضَعوهُ عَلى الْأَرْضِ.. رَفَعوا الْغِطَاءَ.. وَامْتَدَّتِ الْأَيادِي إلى جَسَدِي المَيِّتِ وَرَفَعوهُ وَأَخْرَجوهُ مِنَ التَّابوتِ.. ثُمَّ بَدَؤوا يُنْزِلونَهُ في حُفْرَةٍ تَجَمَّعَتْ بَعْضُ المِيَاهِ في قَعْرِهَا.

وَمِنْ مَكاني الَّذي سُجِّيتُ فِيهِ حاوَلْتُ أَنْ أَرَى مَا حَوْلي.. يَا إِلَهِي!.. أَلَيْسَ هَذَا هُوَ الْقَبْـرُ!؟

لِمَاذَا لَمْ يَخْطُ فِي خَاطِرِي حَتَّى الْآنَ أَنَّنِي سَأَدْخُلُ فِيهِ؟.. لِمَاذَا لَمْ أُفَكِّرْ فِي ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ؟

لاَ أَحَدَ يَسْمَعُ صَرْخاتي الَّتي أُحاوِلُ إِطْلاَقَهَا.. لَا أَحَدَ.

أَهَالَ أَصْدِقائي التُّرَابَ عَلَيَّ.. كَانُوا كَمَنْ يَتَسَابَقُونَ فِي هَذَا..!

مَرَّةً أُخْرَى بَقِيتُ وَحْدِي فِي الظَّلَامِ.. بَقِيتُ فِي ظَلَامٍ دَامِسٍ.. وَبِكُلِّ الْعَجْزِ الَّذِي أَحْسَسْتُ بِهِ وَمِنْ أَعْمَاقِ قَلْبِي بَدَأْتُ أَدْعو بِحَرَارَةٍ: يَا رَبِّ! يَا رَبِّ!.. أَمَا مِنْ فُرْصَةٍ أُخْرَى أَمَامِي؟!.. أَعْطِنِي فُرْصَةً أَخِيرةً.. سَأَمْتَثِلُ لِجَمِيعِ أَوَامِرِكَ.. سَأَكونُ عَبْدًا لَكَ كَمَا تُرِيدُ.. سَأَكونُ كَمَا تُرِيدُ لِكَيْ تَجْعَلَ قَبْرِي رَوْضَةً مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّـةِ.. يَا رَبِّ..!

صَكَّ أُذُنَيَّ ذلِك الصَّوْتُ مَرَّةً أُخْرَى وَبِحِدَّةٍ أَكْـثَرَ: "لَقَدْ فَاتَ ذَلِكَ وَانْقَضَى".!

كُنْتُ أَسْمَعُ صَوْتَ التُّرَابِ وَهُوَ يَرْتَطِمُ بِالْأَلْوَاحِ الَّتِي تُغَطِّي تَابُوتِي.. كَانَ كُلُّ ارْتِطَامٍ يَدْوِي فِي أُذُنِي دَوِيَّ الرَّعْدِ.. كَانَ كُلُّ كَيانِي يَرْتَجِفُ فَزَعًا وَهَلَعًا.

وَفِي مُحاوَلَةٍأَخِيرَةٍ وَيَائِسَةٍ تَمَلْمَلْتُ مِنْ مَكانِي... وَفَتَحْتُ عَيْنِي.. كُنْتُ فِي فِرَاشِيَ الْمُرِيحِ فِي غُرْفَتِي.. كَانَ ذَلِك كابُوسًا مريعا.. وكانَ صَدِيقِي الدُّكْتورُ يُحاوِلُ إِيقَاظِي مِنَ الْكابُوسِ وَيَقُولُ:

لَقَدْ فَاتَ ذَلِكَ وَانْقَضَى.. أُنْظُرْ أَنْتَ بِخَيْـرٍ.. كانَ كابُوسًا اِنْتَهَى وَانْقَضَى.

وَبِبُطْءٍ اِسْتَعْدَلْتُ فِي فِرَاشِي.. كانَ كُلُّ جِسْمِي غَارِقًا بِالْعَرَقِ.. شَعَرْتُ أَنَّنِي فَقَدْتُ أَرْطَالًا مِنَ جِسْمِي فَجْأَةً.. كانَ الْمَطَرُ يَنْهَمِرُ فِي الْخَارِجِ بِشِدَّةٍ وَالْبَيْتُ يَهْتَزُّ مِنْ صَوْتِ الرَّعْدِ. وَبَيْنَ النَّظَرَاتِ الْمُصَوَّبَةِ إِلَى مَنْ حَوْلِي فِي دَهْشَةٍ وَفُضولٍ حَاوَلْتُ أَنْ أَسْتَجْمِعَ قُوَّايَ.. هَمَسْتُ فِي صَوْتٍ خَافِتٍ: "حَمْدًا لَكَ يَا رَبِّ!.. حَمْدًا لَكَ بِعَدَدِ ذَرَّاتِ كَيَانِي.. لَقَدْ مَنَحْتَنِي فُرْصَةً أُخْرَى لِكَيْ أَكونَ عَبْدًا صَالِحًا..

حَمْدًا لَكَ ، وَشُكْرًا لَكَ يَا رَبِّ!..